موقف الدين الإسلامي من أسير الحرب في صدر الإسلام

أ. م. د. مربد صالح ضامن الجبوري
جامعة تكريت – كلية الآداب

الملخص

من الأمور الأساسية التي عنيت بها الدولة العربية الإسلامية منذ بداية نشأتها هو الاهتمام بالأسرى ومعاملتهم بالإحسان، والعفو، والتسامح بابًا من أبواب نشر الإسلام، ومن هنا نجد أنَّ الحروب الإسلامية تختلف بشكلٍ كبيرٍ عن الحروب التي كانت موجودة في ذلك الوقت وإنْ الهدف من هذه الحرب ليس لنهب ثروات البلاد او استبعادهم بل نشر الدين الإسلامي وتخليص الناس من العبودية.

الكلمات المفتاحية: أسير، الاسترقاق، الحديبية، السرايا، الاعتدال.

The Islamic attitude from the war prisoner in Islamic Era

Merbed Saleh Dhamen Al - Jubouri
University of Tikrit- College of Arts

Abstract

One of the basic things that the Arab Islamic state take care of, since its rising, is taking care of captives and treating with charity, amnesty and tolerance as a kind of spreading Islam. In this regard, Islamic wars are significantly different from wars that were at the time and that the goal of this war is not looting the country's wealth or enslaving people, but spreading Islam and rescuing people from slavery.

Keywords: Prisoner, Enslaving, Hodaibeyah, Sarayah, Moderation.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين:

عند قيام أيّ دولةٍ لابدَّ أنْ تواجهه تحديات كثيرة وأعداء لها في العقيدة والفكر فضلاً عن المنافسة على السلطة وأمور الحياة الأخرى، فالدولة العربية الإسلامية دولة فتية والإسلام هو دين ودولة فبكل تأكيدٍ تواجهه هذه التحديات الصعبة فعندما قامت الدولة العربية الإسلامية في المدينة انتفضت القبائل واليهود في الجزيرة العربية.

وبعد قيام الدعوة الإسلامية السرية أمر الله نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنْ تنتقل إلى الدعوة العلنية، أي: نشر الدين الإسلامي بشكلٍ علنيّ والتهيؤ إلى مواجهة الأعداء والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[1]، ونزلت الكثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحثّ المسلمين على الجهاد في سبيل الله ونشر الدين الإسلامي، ومن هنا تظهر معاملة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والصحابة (رضي الله عنهم) للأسرى بكلّ رحمةٍ وعدلٍ وأهداف الدعوة الإسلامية والحزم، ومن هذا نجد تعدد الأساليب وطرق معاملة (عليه الصلاة والسلام) للأسرى منهم قبل الفداء، والبعض الآخر ترك في سبيل الله، ومنهم من اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل ترك سراحه، فجد هنا كلّ أسيرٍ له حالة خاصة به في التعامل.

ومن هذه الأمور اخترنا بحثنا لما نشاهد اليوم من المعارك، والحروب، والفرق الضالة المتطرفة التي تدّعي الإسلام، وكيف تتعامل مع الأسرى المسلمين وغير المسلمين وليس لديهم رحمة او شفقة بكل مقايس والأعراف التي جاء بها الإسلام وهناك شواهد وأمثلة كثيرة على هذه التصرفات الخطيرة تجاه الأسرى وسنتطرق على بعضها في البحث إنْ شاء الله.

وقسّم البحث على ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول:- تعامل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع أسرى الغزوات.

المبحث الثاني:- تعامل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع أسرى السرايا.

المبحث الثالث:- المقارنة بين التطرف والاعتدال، وسنستشهد بدستور الأمة القرآن الكريم وكيف فيه من الآيات الكريمة التي تحثّ على كيفية التعامل مع الأسرى بكلّ رحمةٍ، وإحسانٍ، وطيبٍ، والابتعاد عن قتلهم والتمثيل بهم والانتقام منهم.

المبحث الاول

تعامل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع أسرى الغزوات

عرف الأسير بعدّة تعاريف منها: هو الحرب من أهل دار الحرب والذي يؤخذ قهرًا بالإكراه أو من أهل القبلة يؤخذ ويحبس، فالأسرى في الإسلام: هم الرجال المحاربون من الكفار إذا وقعوا بيد المقاتلين المسلمين أحياء، والأسر قد يكون بغير قتالٍ وفيهم من النساء والرجال، وكأن يضلّ أحدهم الطريق أو يؤخذ بحيلةٍ[٢].

لقد كان تعامل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الأسرى على وفق النهج الإسلامي الشرعي؛ لأنّه لم يكن هناك نظام ثابت للأسرى، وقد شرع الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) نظاماً خاصًا للأسرى بحسب ما حكمت به الظروف التي كانت سائدة في ذلك بحيث يتطابق مع الشريعة الإسلامية وهي: الاقتداء، والاسترقاق، والقتل. والأسر من الأمور التي ذُكرت وشُرّعت في آيات القرآن الكريم قال تعالى: {وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ}[٣]، {فَشُدُّوا الْوَثَاقَ}[٤] وفي هذه الآية الكريمة التأكيد على شدّ وثاق الأسير.

وروح التسامح التي جاء بها الدين الإسلامي انعكست على طبيعة الحياة في هذه الدولة الفتية، ورسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) قد ضرب لنا أمثالاً رائعةً في الروح الإنسانية بالتعامل مع الأسرى بصورةٍ تليق به كإنسان وأنْ يدعوهم بالمعروف قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [٥] فالله سبحانه وتعالى يخاطب الأسرى ويعدهم بالخير إنْ كان في قلوبهم خيرًا بالعفو والمغفرة، والرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون لا يملكون بعد هذه الآية الكريمة إلا التعامل مع الأسير بأقصى درجات الرحمة، والعطف، والإنسانية، قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [٦] وهذه الآيات تدلّ على إطعام الأسرى والتعامل معهم بكلّ عدلٍ، ورحمةٍ، وإحسان، والابتعاد عن إهانتهم وإذلالهم فضلاً عن أنّه لا يجوز تعذيبه وهذا يدلّ على أنّ الدين الإسلامي يمتلك كل درجات العدل والرحمة حتى مع أعدائه، ((وإذا عزم المسلمون على قتل الأسرى، فينبغي ألا يعذبوهم بالجوع والعطش وغير ذلك من أنواع التعذيب؛ لأنّ ذلك التعذيب من غير فائدةٍ، وقد ذكر أنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال في بني قريضة: لا تجمعوا عليهم على حرّ هذا اليوم وحرّ في السلاح ولا تمثلوا بهم))[٧].

وهنا يحاول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) التخفيف عن الأسرى وعدم تحميلهم فوق طاقاتهم، ومن الفضائل الكبيرة والعظيمة التي نصّ عليها الدين الإسلامي هي كسوة الأسير وأنْ تكون هذه الكسوة تليق به وتحافظ عليه من برد الشتاء وحرّ الصيف، وقد أخرج لنا البخاري

أنّه لمّا كان في يوم بدر أتى بالأسرى وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوبٌ فنظر الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) إليه فوجد قميص عبدالله بن أبي الحارث يكفيه فكساه إياه وورد عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) أنّه كسا بعض الأسرى من ملابسه[٨]، وهذه دروس كبيرة وعظيمة يسطرها رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) في كيفية التعامل مع الأسرى والطرق الواجب استعمالها معهم.

وقال ابن القيم الجوزية في تعامل سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) مع الأسرى: كان يمنّ على بعضهم ، ويفادي بعضهم المال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك بحسب المصلحة، ففادى أسارى بدر بالمال وقال (صلى الله عليه وسلم): لو كان المُطعم بن عدي حيًا ثم علمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له [٩] ولمّا كان يوم الحديبية هبط على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فدعا عليهم ثم عفا عنهم [١٠] وذكر قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أنْ يحسن إليهم وإنْ أسراهم يومئذٍ لأهل الشرك[١١] وآثار ابن عباس: كان أسراهم يومئذٍ مشركين [١٢] وقد أمر (عليه الصلاة والسلام) بإكرام أسرى بدر، وكان المسلمون يقدمون الطعام لهم قبل أنْ يقدموا لأنفسهم [١٣].

وعدالة الإسلام وسماحته تحتم على المسلمين إطعام الأسير وعدم تجويعه، وأنْ يكون الطعام لا يختلف عن طعام وكمية طعام المسلمين، وهو يدل على استجابة المسلمين لأمر الله سبحانه وتعالى وطاعةً لنهج رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم).

وحرص (عليه الصلاة والسلام) على العناية بالأسير إذ قال (صلى الله عليه وسلم) : ((استوصوا بالأسارى خيرًا))[١٤]، وأشار عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى قال: ((وكنت في رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا أقدموا غذاءهم وعشاءهم وضعوا لي الخبز لوصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) إياهم بنا وأكلوا التمر[١٥].

وكان الخبز أنفس من التمر؛ لندرة القمح وكثرة التمر، لذا كان إيثار الأسير بالخبز من باب الإكرام والتقدير للأسير وتطبيق الشريعة الإسلامية الحنيفة [١٦] . وذكر أبو العاص بن الربيع: كنا إذا تغدينا أو تعشينا، آثروني بالخبز[١٧].

إنّ هذه الدروس العظيمة التي سطرها رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) في أصحابه أدى إلى التأثير الكبير على المشركين وكبرائهم وأشرافهم للدخول في هذا الدين الجديد، الذي سطر أروع قيم التسامح والعدالة، إذ أسلم أبو عزيز بن عمير بعد معركة بدر بعد وصول الأسرى

إلى المدينة وكذلك أسلم معه السائب بن عبيد، [١٨] وبدأ رسولنا الكريم يستشير الصحابة في أمور الأسرى إذ استشار كبار الصحابة بذلك، فأشار عليه أبو بكر الصديق(رضي الله عنه) أنْ يأخذ منهم الفدية، فهو ينو العفو عنهم ولعل الله أنْ يهديهم إلى الإسلام، وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): لا والله لا أرى الذي رأى أبو بكر ولكن أرى أنْ تمكننا فنضرب أعناقهم فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فأخذ رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) بما قاله أبو بكر، ولم يذهب إلى رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فلما كان الغد أقبل عمر فإذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبكي هو وأبو بكر فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أيّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبك، فإنْ وجدت بكاءً بكيت، وإنْ لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال (صلى الله عليه وسلم) : أبكي للذي عرض لهم على أصحابك من أخذهم الفداء ! لقد عرض عليّ في عذابهم أدنى من هذه الشجرة وأنزل الله تعالى قوله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [١٩] .

وافترق العلماء في الرأيين أصوب، فمنهم من قال رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هو الأصوب والرأي الثاني صحة قول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)؛ لاستقرار الأمر عليه ومطابقة لكتاب الله (عز وجل) لما فيه من الرحمة التي تبلغ على الغضب، ولم يثبت أنَّ الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) قتل أسير باستثناء أسيري سرية عبدالله بن جحش (٢هـ /٦٢٣م) وهما النضر بن الحارث وعقبة بن ابي معيط وأسير آخر قال: اقتلوه ولو كان متعلقًا بستار الكعبة؛ وذلك لتعاملهم وقسوتهم وشدة إيذائهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وللمسلمين ووقوفهم بقوة بعدم نشر الدين الإسلامي [٢٠] .

أما أسرى بني قريظة فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما شاهدهم موقوفين في قيظ النهار تحت أشعة الشمس القوية فقال للحرس: ((لا تجعلوا حرّ هذا اليوم وحرّ السلاح... قيلوهم حتى يبردوا))، وسُئل الإمام مالك (رحمه الله) : ((أيعذب الأسير إنْ رجي أنْ يدلّ على عودة العدو ؟)) فأجاب قائلاً : ((ما سمعت بذلك)) [٢١]. ومن هنا يستدلّ تحريم الإسلام تعذيب الأسرى وإهانتهم والتعامل معهم بكلّ لينٍ ورأفةٍ والتقديم لهم ما يمكن تقديمه للحفاظ على صحتهم وكرامتهم وعدم إهمالهم بشكلٍ متعمدٍ. ومن الشواهد التي تدلّ على تعامل المسلمين بشكلٍ حسنٍ مع الأسرى في المعارك والغزوات وتعاملهم مع ابنة حاتم الطائي، إذ أعطاها (عليه الصلاة والسلام) كسوةً ونفقةً حينما وقعت أسيرةً في يد المسلمين بل حملها حتى خرجت مع بعض الناس من قومها [٢٢] .

أما في يوم الفتح (رمضان ٨هـ –٦٣٠ م) فقد عفو عن المشركين الذين قاتلوا ضد المسلمين وسمّوا بالطلقاء وهذا يدل على رحمة وتسامح رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) للأسرى والمواقف الأخرى كثيرةً التي تدلّ على شخصية وعدل وسمو ورقة نبينا (صلى الله عليه وسلم).

أما في غزوة الأحزاب (٥هـ/ ٦٢٧م) فتمّ محاسبة يهود بني قريظة؛ لنقضهم العهد مع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في أصعب الظروف وأقساها، إذ تآمروا مع كفار قريش على المسلمين بعد عودة رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من معركة الخندق ووضعه السلاح، فقد أمر الله (سبحانه وتعالى) نبيه بقتال بني قريظة وأمر (صلى الله عليه وسلم) أصحابه بقتالهم وحاصرهم (خمسًا وعشرين ليلة)، فاستسلموا وأرادوا النزول على أنْ يحكم فيهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه)[٢٣] .

وقد رأوا أنّه سيرأف بهم؛ لأنّ بينهم وبين قومه الأوس حلفٌ، فجيء بسعد محمولاً لإصابته بسهمٍ في ذراعه يوم الخندق فقضى أنْ تقتل المقاتلة، وأنْ تسبى النساء والذرية وأنْ تقسّم أموالهم فأقرّه رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) وقال: ((قضيت بحكم الله من فوق سبع سماوات))[٢٤] .

وهذه عدالة السماء وجزاء عادل نزل بمن غدر بالمسلمين وهو الجزاء حين عرضوا أرواح المسلمين؛ بسبب خيانتهم ونهب أموالهم وأنَّ هذا العقاب هو وفقًا لما قاموا به من خيانة ونقض للعهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، أما أسرى بني المصطلق، فبعد ما وقع هؤلاء أسرى بقبضة المسلمين بعد معركة بني المصطلق أعداء الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وقد وقعت جويرية بنت الحارث سيد نبي المصطلق في الأسر فكاتبها، فأدى عنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتزوجها، فاعتق المسلمون بسبب هذا الزواج مئة من أهل بيتٍ من بني المصطلق. وأسلموا وقالوا: أصهار الله[٢٥] قالت عائشة (رضي الله عنها) : ((فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها))[٢٦].

وبسبب هذه المصاهرة وما جاءت به تعاليم ديننا الحنيف استكثر الصحابة على أنفسهم أنْ يمتلكوا أصهار نبيهم وسيدهم (عليه الصلاة والسلام) وتكريمهم إياه والاقتداء بأخلاق قائدهم في معاملة الأسرى التي اكتسبوها من المعاملة الحسنة في الحروب والغزوات السابقة فكانت دروسًا قيمةً بقت خالدةً وتدرس حتى يومنا هذا.

وقد أشاد الكثير من المستشرقين إلى السياسة العادلة التي اتبعها سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) مع الأسرى قال جان باغوت غلوب: في انتصار المسلمين على قبيلة (هوازن) في حنين كسبوا غنائم كثيرة فضلاً عن أنّهم أسروا عددًا كبيرًا منهم وأكثرهم من النساء والأطفال[٢٧] .

وحينما عاد سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) من دون أنْ يتمكن من فتحها شرع بتقسيم الغنائم بين الرجال وجاءه وفد من (هوازن) المغلوب على أمرهم والمنهزمين في المعركة يرجونه بإطلاق سراح النساء والأطفال من الأسرى فاستجاب (عليه الصلاة والسلام) لطلبهم بما عرف به من دماثة أخلاقه والتسامح والعدل ونشر روح التسامح بتعاليم الدين الإسلامي، فقد كان ينشد من جديد في ذروة انتصاره أنْ يكسب الناس أكثر من نشدانه عقابهم وقصاصهم [٢٨] ، وقد أثر هذا التصرف في مالك بن عوف زعيم هوازن بما لاقته قبيلته من حسن تعامل وتسامح وكرم من سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين وبعد أنْ تمّ إطلاق كل الأسرى من قبيلة (هوازن)، جادت قريحته لمدح سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) فأنشد أبياتًا من الشعر يشكر فيها رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) قال مالك :

وَمَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فِيْ النَّاسِ كُلُّهُم بِمِثْلِ مُحَمّدٍ

أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيْلِ إذَا اجْتَدَى ... وَحَتَّى تَشَأ يُخَبّرْكَ عَمَّا فِيْ غَدٍ [٢٩]

المبحث الثاني

تعامل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع أسرى السرايا

بعد أنْ شرع الله (سبحانه وتعالى) لرسولنا الكريم (عليه الصلاة والسلام) القتال ومحاربة الكفار ونشر الدين الإسلامي بشكلٍ علنيّ بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ببسط سيطرته على المناطق القريبة من عنده والطرق المؤدية لها. والسيطرة على تلك القبائل وعلى تجارتهم واستعمل لتلك السيطرة طريقتين :

١- قيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالتحالفات مع بعض القبائل التي كانت تسكن مجاورة لتلك الطرقات وعدم الاعتداء على الطريق وقطع التجارة بين المدينة والشام ومن هذه المعاهدات والتحالفات التي عقدها (عليه الصلاة والسلام) مع قبيلة جهينة قبل الشروع بالنشاط العسكري.

٢- إرسال البحوث والسرايا [٣٠] إلى مختلف الاتجاهات – وسنذكر قسمًا منها فيما بعد– ولتنفيذ كلّ هذه الإجراءات والطرق بدأ بالتحركات العسكرية، وبعد أنْ نزلت الآية التي أذنت للرسول

(صلى الله عليه وسلم) والمسلمين بالقتال قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[٣١] .

- إنَّ الهدف من هذه التحركات والسرايا:

١- ليكونا عيونًا لاستكشاف كلّ الطرق التي تحيط بالمدينة والطرق والمسالك التي تؤدي إليها.

٢- إظهار قوة المسلمين أمام أعراب المدينة ومشركي يثرب واليهود الموجودين في تلك المناطق، وإشعار المشركين أنَّ هناك دولةً فتيةً قويةً ستكون لها تأثيرًا في هذه المناطق.

٣- سعت الدولة العربية الإسلامية الجديدة لعقد المعاهدات مع القبائل التي كانت تسكن على الطريق.

٤- تحذير قبيلة قريش بعد الطيش الذي قامت به ضد المسلمين وإنذارها بالقوى الجديدة التي ستكون بيدها القوى والاقتصاد[٣٢].

إنَّ قيام أيّ دولةٍ فتيةٍ تواجهها الكثير من الصعوبات والتحديات فقد كانت الدولة العربية الإسلامية في بداية دعوتها كثيرًا ما تواجه الصعوبات ممّا أدّى بها أنْ تقوم بعدّة حركاتٍ تكتيكيةٍ لمعالجة معظم الأمور الصعبة التي واجهتهم من المشركين فهجرتهم إلى الحبشة ومرة أخرى إلى المدينة؛ للحفاظ على أنفسهم من بطش المشركين؛ لأنّهم هم أداة الدعوة الإسلامية.

وتقع على عاتقهم نشر هذا الدين الجديد بهجرتهم إلى تلك المناطق، ففي هجرتهم إلى المدينة المنورة كان في استقبالهم الأنصار الذين أكرموهم أيّما إكرامٍ وتحملوا مسؤولياتهم ليكونوا أكثر استقرارًا؛ للاستمرار في نشر الدعوة الإسلامية وقد سخروا أنفسهم لهذه الدعوة الإسلامية؛ لأنّهم وبقيادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلمون أنّهم سيواجهون أشدّ المخاطر وأصعب المواقف لنشر الدين الإسلامي ومع مرور الوقت زادت المخاطر على المسلمين من قبيلة قريش وأصبحت تهدد كيان هذه الدولة الفتية، فأنزل الله (سبحانه وتعالى) الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم، قال تعالى : {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[٣٣] .

وكان الإذن في البداية مقتصرًا على قتال قبيلة قريش ومع مرور الوقت وبدء الدين الإسلامي بالانتشار تغيرت الظروف حتى وصل مرحلة الوجوب ونشر هذا الدين إلى كلّ المناطق المجاورة، ومن هنا بدأ الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ومعه المسلمون بالتعرض للمشركين ليعطوهم تحذيرًا ورسالةً بأنّهم قوةٌ جديدةٌ موجودةٌ على الأرض. مستعدةٌ لقتالهم لنشر الدين الحنيف؛ لأنّ نشر الدين الإسلامي يتطلب القوى والحزم؛ لإيصال هذا الدين إلى أبعد نقطةٍ على الأرض، وكذلك كان المشركون يتربصون بأيّ فرصةٍ للإيقاع بالمسلمين شرًا، فوجب على

المسلمين أنْ يستعدوا لكلّ طارئ لأجل توازن القوى ومع مرور القوى الكبرى في المنطقة، ولتخشاهم الدول الكبرى في المنطقة ويحسبون لهم كلّ حسابٍ وفي الميادين جميعًا.

- نماذج من بعض أسرى السرايا في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

١- سرايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) سرية نخلة (٢هـ/ ٦٢٤ م) بقيادة عبدالله بن جحش الأسدي ومعه اثنا عشر رجلاً من المهاجرين، قتل في هذه السرية عمرو بن الحضرمي، وأسر اثنين وتمّ اقتيادهم إلى المدينة وبعد وصولهم عزلوا الخمس، وهو أول خمس في الإسلام، وأنكر رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) ما فعلوه وقال: ((ما أمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام والتوقف عن التصرف في العير والأسيرين)).

إلى أنْ أنزل الله (سبحانه وتعالى) الآية الكريمة وحسم كلّ الأمور، وأنَّ ما عليه المشركين أكبر ممّا ارتكبه المسلمون، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}[٣٤].

وقد تعامل سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) مع الأسيرين بإطلاق سراحهم وأدّى دية المقتول إلى أوليائه[٣٥] .

٢- سرية محمد بن مسلمة القرطاء (سنة ٦ هـ)

سار محمد بن مسلمة في سرية القرطاء بأمرٍ من سيد المرسلين (عليه الصلاة والسلام) وكان برفقته هوزان ثلاثون راكبًا إلى القرطاء في عشر ليالٍ خلون من محرم، فقتلوا عددًا منهم وأسروا رجلاً يقال له: (ثحامة بن اثالٍ) سيد أهل اليمامة ورجعوا إلى المدينة، فخرج إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: ((ما عندك يا ثحامة)) قال: عندي يا محمد خير، إنْ تقتل تقتل ذا دم، وإنْ تنعم تنعم على شاكر، وإنْ تريد المال سل تعط منه ما شئت فتركه، ثم مرّ به مرةً أخرى فقال له مثل ذلك، فردّ عليه كما ردّ عليه أولاً ثم مرّ مرة ثالثة وبعدما دار بينهما الحديث أطلق سراحه وجلب له الطعام والماء، وذهب إلى نخلةٍ قريبةٍ من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: البلاد أحبّ البلاد إليَّ[٣٦] .

٣- سرية ابن عبيدة ٨هـ إلى ذي القصة [٣٧].

أرسل الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، أبا عبيدة بن الجراح وبرفقته أربعين رجلاً إلى ذي القصة، وقد بلغ رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) أنّهم يريدون أنْ يغيروا على المدينة

ويبعدهم عن المدينة ما يقارب السبعة أميال، فأسروا رجلاً واخذوا الغنائم وعادوا إلى المدينة، ومن ثمّ فكّ رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) الأسير[٣٨].

المبحث الثالث

المقارنة بين التطرف والاعتدال

أشرنا في بداية البحث عن كيفية تعامل سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) مع أسرى المشركين في الغزوات والحروب فضلاً عن التعامل الحسن والعادل مع أسرى السرايا مستلهمًا من التعاليم الإسلامية والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أنَّ إقرار الإسلام بالتعامل مع الأسرى بالتسامح والرحمة والعدالة وعدم التعسف بعد الانتصارات التي تحققت مع المهزومين في الحروب والغزوات.

وروي عن سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) أنّه قال: ((استوصوا بالأسارى خيرًا))[٣٩] وما جاء من أحكام شرعية في الحديث النبوي الشريف ليس لمجرد أنّها مشروعة، بل للوجوب وذلك لورود الكلام بصيغة الأمر ومثّل على صيغة الأمر التي وجب التطبيق الكلام بها حينما ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنّه قال في بني قريظة بعدما ارتفعت درجات الحرارة في النهار وهو من أيام الصيف الحارة: لا تجمعوا عليهم حرّ النهار، وحرّ السلاح، قيلوهم، حتى يبردوا [٤٠] ومن هنا نجد أنَّ كلام سيد المرسلين حينما يأتي بصيغة الأمر يعدّ من الأمور المهمة جدًا والالتزام بها فرضٌ وبشكلٍ لا يفيد التأويل او التسهيل.

أي: عدم التعامل مع الأسرى بشكلٍ قاسٍ أو تعذيبهم أو تجويعهم أو أنْ يتركوا في يوم الصيف الحار بل بالعكس أنَّ الإسلام والشريعة الإسلامية تحضّ على معاملة الأسرى بكلّ ودّ، واحترامٍ، وإحسانٍ، وعدالةٍ استناداً لقول الله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}[٤١].

قال (صلى الله عليه وسلم) : ((فكّوا العاني– أي: الأسير– وأجيبوا الداعي، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض)) [٤٢] .

ومن التشريعات الإسلامية تجاه الأسير هو شدّ الوثاق لمَنْ يوقع بالأسر بيد المسلمين، وهذا دليلٌ على أنَّ كلّ مَنْ يقع بالأسر يجب أنْ يُمنع من الأسر ولبساطة الأوضاع في صدر الإسلام وعدم تخصيص أماكن لهذا الغرض كان الأسير يودع في المسجد تحت المراقبة أو يتكفل به أحدٌ المسلمين في داره. ومن وديعة تحت سمعه وبصره بوصفه عضوٌ متضامنٌ مع الجماعة حتى يأمر نبينا (صلى الله عليه وسلم) في أمرٍ [٤٣]. ويتقرر مصيره، أما عن السيدة

جويرية بنت الحارث فحينما وقعت أسيرةً مع بعضٍ من قبيلتها في غزوة المصطلق (٨ شعبان ٦هـ – ٦٢٧م)، حضر أبوها الحارث بن ضرار ليفديها فقال للرسول (صلى الله عليه وسلم) : يا محمد أصبتم ابنتي وهذا قطيع من الإبل فداؤها، فقال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) : ((أين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق؟ – وكان الحارث قد أخفى جميلتين أعجباه – فما كان منه إلا أنْ قال: ((أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنّك رسول الله، والله ما أطلعك على ذلك إلا ربك))، وأسلم وأسلمت ابنته فخطبها (صلى الله عليه وسلم) من أبيها وتزوجها[٤٤].

وبعد ذلك أنف الصحابة (رضي الله عنهم) أنْ يظل أسرى بني المصطلق تحت أيديهم، وقد أصبحوا أصهار رسول الله فمنّوا عليهم الفداء.

وكانت عائشة (رضي الله عنها) تقول: ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جورية))[٤٥].

ونستدلّ ممّا تقدم على مبدأ الاعتدال الذي تعامل معه الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) مع الأسيرات.

وكلّ ما تقدّم هو الثوابت التي جاء بها ديننا الحنيف وهو المنبع الصادق والصافي الذي نستمد منه مبادئنا وعلومنا الشرعية، وإذا اختلفنا في شيءٍ فنردّه إلى الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) تلك هي القيم الإسلامية والمنهج القويم الذي نُشر بين الناس؛ للتراحم بينهم والعدالة بين فئات المجتمع وكذلك العدالة والتسامح حتى مع الأعداء، قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[٤٦] .

ومن بعد هذه الآية الكريمة يدلّ على إكمال الدين لكلّ أركانه ومَنْ يقوم ببنائه رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) إذ لا ينطبق عن الهواة، وإنّما سيدنا جبريل (عليه السلام) يعنى بذلك، لذا كان انتشار الإسلام بسرعةٍ كبيرةٍ بين الناس، وعلى الرغم من ظهور فرقٍ ضالةٍ مارقةٍ محسوبةٍ على الدين الإسلامي والتي تدّعي أنّها الفرقة الناجية، وهي في الحقيقة ظلّلت بعض الناس وشوّهت الدين الإسلامي، وخير دليلٍ على ذلك الخوارج وقتلهم للخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)[٤٧] ، وعاثوا في الأرض الفساد وأساءوا للإسلام وكيف كان تعامل هذه الفرق الضالة مع الأسرى. بكلّ تطرفٍ وقسوةٍ وأحكامٍ ضالةٍ ليس لها صلة بالدين الإسلامي فضلاً عن ذلك تشريد الناس الآمنة وقتل الأطفال والنساء والشيوخ والشباب من دون وجه حقّ وأنَّ هذه الفرق صنعت قوة الإيمان بمعتقدهم الضال، وأنَّ الخوارج في ذلك الوقت وفي وقتنا الحاضر عملتان لوجهٍ واحدٍ، لذا حذّر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من التشدد والتعمق في الدين؛ لأنّه

مخالفٌ للاعتدال وسماحة الدين الإسلامي وأخبرنا أنَّ المتنطع مستحقٌ للهلاك والخسران، قال (عليه الصلاة والسلام) : ((هلك المتنطعون قالها ثلاثاً))[٤٨].

وهذا يدل على شذوذ الخوارج المخالف لسماحة الإسلام ومَنْ اقتدى بهم وسار على هذا النهج المبني على التشدد والتعسف والمبتعد عن عدالة وسماحة ويسر الدين الإسلامي قال (صلى الله عليه وسلم) : ((إنَّ الدين يسرٌ، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه فسدّدوا وقاربوا)[٤٩] هؤلاء وصعوبة اقتناعهم ورجوعهم إلى الطريق الصواب، سيكون من الصعب علينا إقناع المتطرفين ما كان عليه سلفنا الصالح مع الاسرى والعدالة والسماحة التي كان يتحلى بها (عليه الصلاة والسلام) والصحابة الأخيار وإذا ما قارنا مع الحملات الصليبية الذين يدعون أنّهم يحاربون لأجل سيدنا المسيح (عليه السلام) من قتلٍ، وبطشٍ، وحرقٍ، وتعذيبٍ للأسرى وقتل كلّ إنسانٍ أمامهم ولم يسلم من بطشهم وقسوتهم حتى الشيوخ، والأطفال، والنساء.

ومن هذا الاستطراد السريع لواقع حال المسلمين بقيادة سيد البشرية محمد (صلى الله عليه وسلم)، يبين الفرق الضالة التي ابتعدت عن المنهج الحقيقي للدين الإسلامي والتزمت بالتشدد والقتل وحال أمم الكفر والتعامل القاسي البعيد عن التسامح والعدالة نجد الشريعة التي جاء بها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هي المنهج الحق والعدل، الذي يتلاءم مع كل زمانٍ وعصرٍ؛ لأنّه يحقق العدالة مع الجميع وبالأخص مع العدو.

الخاتمة:

ركز البحث عن كيفية تعامل النبي (عليه الصلاة والسلام) مع الأسرى في غزواته وسراياه والذي يعكس واقع الرسالة السماوية التي يحملها للبشرية وهي رسالة ليست للعرب فقط بل لكل أرجاء العالم.

أولاً:- توصلنا من هذه الدراسة إلى عظمة الرسالة السماوية المتمثلة بالشريعة الإسلامية، وإلى الأمانة التي حملها سيد المرسلين (عليه الصلاة والسلام) لإيصالها إلى كلّ البشرية.

ثانيًا:- إنَّ المنهاج الذي جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم) منهاجٌ للعدالة والتسامح للتعامل مع أسرى الحروب معاملةً تليق بهم، وتقيد المسلمين للأسرى كل ما يحتاجونه من أكلٍ وشربٍ وأمانٍ وأنْ تكون المعاملة بالشكل الحسن ولا يضرب أو يجبر على إعطاء معلوماتٍ عن العدو.

ثالثًا:- إبراز معاملة النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) بأوقات الحروب والتصرف بحسب الموقف من حيث اللين أو الشدة أو الحزم، تطبيقًا للآيات القرآنية والمنهاج الإسلامي.

رابعًا:- ظهور فرق ضالة أفرطت بالقتل والعنف مع المجتمع والأسرى وقد شوهت الدين الإسلامي الحنيف وما جاء به من رحمةٍ، وتسامحٍ، ومغفرةٍ.

خامسًا:- فسّرت هذه الفرق الضالة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريعة بحسب أهوائها، الأمر الذي ألحق بالكثير ممّن تبعوهم إلى الاعتراف على الدين الإسلامي القويم.

سادسًا:- طعن بعض المتشددين بالدين الإسلامي وما قامت به حملاتهم الصليبية من قتلٍ، وفتكٍ بالناس وبكلّ الأساليب الوحشية.

الهوامش

References

(١) سورة الحج، الاية: ٣٩.

(٢) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام (ت:٧٢٨هـ) السياسة الشرعية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، (السعودية ١٤١٨هـ،١٩٩٨م)، ص١٢٨-١٣٠.

(٣) سورة التوبة، الآية :٥.

(٤) سورة محمد، الآية: ٤.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٧٠.

(٦) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(٧) الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الحنفي، (ت: ٥٨٧هـ) بدائع الصائع في ترتيب الشرائع، ط٢، (دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص١٢١.

(٨) البخاري، أبو عبدالله محمد إسماعيل البخاري الجعفي (ت:٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، (دار طوق النجاة مصورة عن سلطانية بإضافة ترقم محمد فؤاد عبدالباقي، ١٤٢٢هـ) ج٤، ص ٦٠، رقم الحديث (٣٠٠٨).

(٩) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت:٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، ط ٢٧، (مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، (١٤١٥ هـ/١٩٩٤م) ج٣/ص٩٩.

(١٠) م. ن، ج٣، ص ١٠٠.

(١١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الاملي، (ت:٣١٠هـ) جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق : أحمد محمد شاكر، ط١(مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م) ج ٢٤، ص ٢٧.

(١٢) ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر الدمشقي، (ت: ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، ط٢، (دار طيبة للنشر والتوزيع،١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، ج٨، ص ٢٨٨.

(١٣) م.ن، ج ٨، ص ٢٨٨.

(١٤) الواقدي، أبو عبدالله، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، (ت:٢٠٧هـ) المغازي تحقيق: مارسدن جونس، ط٣ (دار الإعلامي- بيروت، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩) ج١، ص ١١٩.

(١٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط٢، ج٢،ص٤٦١.

(١٦) منذ كان في جيش المشركين قبل إسلامه. ينظر، الواقدي، المغازي، ج١، ص١٢٥.

(١٧) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، بالولاء المدني، أبو عبدالله، (ت:٢٠٧هـ) المغازي تحقيق: مارسدن جونس، ط٣ (دار الإعلامي – بيروت،١٤٠٩هـ- ١٩٨٩) ج ١ص ١١٩.

(١٨) الصالحي، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق مصطفى عبدالواحد وآخرين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ج٤، ص٧١.

(١٩) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

(٢٠) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٣٦٩.

(٢١) ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت:٧٥١هـ) زاد المعاد في هدي خير العباد، ط٧، (مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية الكويت، ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م) ج٣، ص٩٩.

(٢٢) انظرك: وهبة الزحيلي: اثار الحرب، ص: (٤١٤).

(٢٣) ممدوح إبراهيم الطنطاوي: أخلاقيات الحرب في الإسلام، مجلة الجندي المسلم العسكرية الإسلامية، العدد ١١٢.

(٢٤) (حديث مرفوع) حدثنا محمد، حدثنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، أبي أمامه بن سهل قال: سمعت أبا سعيد الخدري، قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، قال : فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، إلى سعد، فأتاه على حمار قال: فلما دنا قريبًا من المسجد، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ((قوموا إلى سيدكم أو خيركم)) ثم قال: ((إنَّ هؤلاء نزلوا على حكمك)) قال : فقتل مقاتلتهم وتسبى زراريهم، قال: فقال النبي(صلى الله عليه وسلم) : ((لقد قضيت بحكم الله)) وربما قال: ((قضيت بحكم الملك)).

(٢٥) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله بن عبد الحسن التركي، الناشر، (دار هجر للطباعة والنشر) ج٤، ص ١٥٩.

(٢٦) ابن كثير البداية والنهاية، ج٤، ص ١٥٩.

(٢٧) غلوب، جان باغوت، الفتوحات العربية الكبرى، (المعروف باسم ((غلوب باشا)) ولقبه (أبو حنيك) ضابط بريطاني عُرف بقيادته الجيش العربي الأدني بين العامين ١٩٣٩-١٩٥٦، (ت:١٧ مارس ١٩٨٦ م) ص١٥٧-١٥٨.

(٢٨) المبارك، فوري، صفي الرحمن، ص ١٩، [د.م] مج ١، ص ١٨٤.

(٢٩) الأعظمي، محمد مصطفى، مغازي رسول الله، ص١١٣.

(٣٠) سمّى المؤرخون ما خرج فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفسه، غزوة حارب فيها، لم يحارب، وما خرج فيه أحد من قادته، سرية. ينظر، الصالحي، سبل الهدى والرشاد، ج٣، ص٧٧.

(٣١) سورة الحج، الآية ٣٩.

(٣٢) الأعظمي، مغازي رسول الله، ص١١٤.

(٣٣) سورة الحج، الآية ٣٩.

(٣٤) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

(٣٥) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٢، ص٨٣-٨٥.

(٣٦) ابن حبان، أبو حاتم محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ (ت:٣٥٤هـ)، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، وصححه وعلق عليه : الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، ط٣، الكتب الثقافية – بيروت،١٤١٧ هـ /١٩٩٦ م، ج١، ص ٢٦٨.

(٣٧) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت:٥٩٧). المنتظم في تاريخ الامم والملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢م)، ج٣، ص٢٥٥.

(٣٨) المبارك عفوي، صفي الدين، الرحيق المختوم، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ص١٤٢؛ ابن سيد الناس: كتاب عيون الاثر، ج٢، ص١١٢.

(٣٩) الحلبي، نور الدين، السيرة الحلبية، ج٢، ص٢٢٣.

(٤٠) الواقدي، المغازي، ج١، ص١١٩.

(٤١) سورة الإنسان، الآية ٨.

(٤٢) ابن هشام، ج٤، ص١٠٤٥.

(٤٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص٩٠.

(٤٤) البيهقي، دلائل النبوة، ج٩، ص ٢٨٨.

(٤٥) ابن هشام، ج٤، ص ١٠٥٣.

(٤٦) سورة المائدة، الآية ٣.

(٤٧) ابن سعد : الطبقات، ج٣، ص٣٥.

(٤٨) البخاري، صحيح البخاري، ج٣، رقم الحديث ٣٠٢.

(٤٩) مسلم، كتاب المعلم، شرح النوري، ج١٦، ص ٢٢٠.